دور النظام البائد في تجفيف الأهوار

لم يتردد نظام (صدام حسين) في تدمير مصادر الثروة المائية للأهوار، إذ قام مبكراً (منذ العام ١٩٨٥) بخطوات لتجفيفها مقدمةً لمشروع أكبر أدى إلى تدمير هذا المستنقع المائي الشاسع. فقد كشف الدكتور(جيمس يراز نكتون) الأستاذ في قسم الجغرافيا في جامعة كامبريدج البريطانية عن قيام السلطات العراقية بأعمال هندسية جديدة لتجفيف ما تبقى من مياه أهوار الحويزة المتاخمة للحدود العراقية. الإيرانية في العام(١٩٨٥) وفي حقبة التسعينيات بعد انتهاء حرب الخليج قام النظام الحاكم بحملة هندسية واسعة ومبرمجة لتجفيف أهوار الجنوب العراقي وقد اشترك جيشه بكل قدراته التنفيذية على مستوى الجهد الهندسي وإمكانيات دوائر الري وقد رافق ذلك إجلاء قسري لسكان القرى الواقعة ضمن المشروع بالقوة وهدم البيوت والقتل والقصف المدفعي وقد تم تنفيذ هذا المشروع بإنشاء سدود ترابية لمنع تدفق المياه من الأنهر التي تغذي الأهوار ، ثم توجيهها لتصب في نهر الفرات وتحويل مجرى الفرات من موقعه الحالي شرق الناصرية إلى مجرى المصب العام أو ما عرف بنهر (صدام) الذي كان في الأصل مبزلاً للمياه المالحة إلى خور الزبير فالخليج العربي بالإضافة إلى إنشاء سدّة ترابية بين قضاء المدينة ومحافظة الناصرية لمنع تدفق مياه الفرات إلى هور الحمار بواسطة الروافد مع سدود ترابية داخل الأهوار نفسها لتسهيل تجفيفها بسرعة [٢٧].

الاثار المترتبة على تجفيف الاهوار

إن هذه العملية الاجرامية للنظام البائد أدت إلى تحطيم نظام حياة بيئي استمر أكثر من (٥٠٠٠) سنة وتقليص مساحة الأهوار التي كانت تمتد إلى (١٥٠٠٠ - ٢٠٠٠٠) كيلومتر إلى أقل من (٢٠٠٠) كم٢ وتدمير الأهوار المركزية بنسبة (٩٧%) وتحولت إلى أراض جرداء ما صاحبه انخفاض مجموع السكان من (٤٠٠,٠٠٠) مواطن إلى نحو (٨٥٠٠٠) مواطن أما الذين نجوا وأصبحوا تحت ضغط الإبادة فتم تهجيرهم إلى المدن وجاءت هذه

العملية مع انخفاض شديد في منسوبي نهري دجلة والفرات. ادت عمليات تجفيف الاهوار إلى تدمير البيئة النباتية والحيوانية لان عمليات التجفيف أثرت بصورة مباشرة في الحياة النباتية والحيوانية، وانطوت على تدميرها، فهو أحد الأسباب الرئيسة لخسارة التنوع البيولوجي، و أثر سلبا في عدد الأصناف النباتية الموجودة فيها وانواعها. حيث تتواجد في الاهوار أنواع عديدة من النباتات أهمها القصب والبردي وعدد من الأصناف النباتية المستوطنة. وإضافة إلى القيمة الغذائية لبعض النباتات (الحميرة، الجولان، سلق الماء، الشمبلان) إذ تغيرت نوعية الغطاء النباتي و اختفت مجتمعات نباتية وظهرت مجتمعات نباتية جديدة تلاءمت مع البيئة الصحراوية الجديدة مثل الطرفة والطرطيع والشويل و العجرش، واصيبت بساتين النخيل وكثير من بساتين الفاكهة التي كانت تشتهر بها المنطقة بالأمراض الكثيرة التي أدت الى هلاك مساحات شاسعة منها، وما تبقى اصبح عديم الجدوى الاقتصادية، اضافة الى ظهور اصابات بحشرة الارضة في بساتين النخيل ولاسيما في شمال البصرة وكانت هذه البساتين تعيش في بيئة مغمورة بمياه يتعذر على الحشرة اختراقها والانتقال من مكان الى اخر بسهولة، واضافة الى ان النباتات التي كانت تعيش في البيئة المائية توفر الاوكسجين الضروري للمياه الذي يبعث الحيوية والنشاط، أما الحياة الحيوانية ، فلقد أدى التجفيف الى التأثير سلبا في العديد من الحيوانات البرية والداجنة التي تعيش فيها (ابن آوى، الثعلب الأحمر، الضبع، القنفذ وغيرها من الحيوانات)[٢٨].

- ويعد الجاموس من أشهر الحيوانات الموجودة في المنطقة إذ يقضي معظم وقت النهار في الماء وهو من الحيوانات المهمة اقتصاديا للسكان وإن تجفيف الاهوار ادى الى انقراض أنواع لا حصر لها من الحيوانات، والاسماك والطيور إذ كان هناك ما يقارب (٢٧٨) نوعاً من الأنواع النادرة، والرائعة كالخضيري والحذاف التي كانت تعد الاهوار محطة اساسية تستعملها ملايين الطيور في خطوط هجرة الطيور من سيبيريا الى افريقيا، وانقرضت انواع نادرة من الحيوانات التي لا يوجد مثيل لها في اي بيئة مائية اخرى. واكد بعض الخبراء أن (كلب البحر) العراقي الذي اكتشفه علماء الحياة المائية في عام (١٩٥٠) م وهو لا يعيش في اي مكان آخر في العالم وقد انقرض هذا الحيوان بعد تجفيف الأهوار ، ولا يبدو ان اعادة المياه الى الأهوار ستعني عودته. اما الجاموس فقد تعرض للموت إما بالقذائف او لقلة المياه وجفافها وعدم امكانية الخروج من المستنقعات الطينية، واصبحت هناك مقابر جماعية للجاموس كما تعرض العديد من اللبائن والأسماك المستوطنة في الاهوار إلى الانقراض ، واصبح (٦٠ستون) نوعا من الطيور في خطر. ومن الحيوانات النادرة التي لم تعد موجودة في الاهوار يمكن الإشارة إلى قاذف السهام الأفريقي، أبو منجل، البجع الدلماس، النسر الملكي، قط الأدغال، ثعلب الماء والذئب الرمادي [٢٩].

- إنّ قلة المياه وتقلص مساحة الأراضي الرطبة، وقلة المصادر الغذائية وأماكن التعشيش سيؤثر في أعداد الطيور المستوطنة والمهاجرة. إذ يعيش في الاهوار أكثر من (٣٠٠) نوع من الطيور وتتغير أعدادها من موسم لآخر إذ يصل عددها إلى أكثر من (مليوني) طير من مختلف الأنواع في موسم الهجرة الذي يمتد من شهر كانون الأول إلى شهر شباط، وتصل الطيور المهاجرة إلى الاهوار من مناطق مختلفة وبعيدة مثل غابات سيبيريا وبحر الاورال واسيا الوسطى والبحر الأسود وتركيا والصين والبلدان الإسكندنافية وأفريقيا وجنوب شرق آسيا.

- انّ تجفيف الاهوار ادى الى ارتفاع درجات الحرارة وانخفاض نسبة الرطوبة مما زاد الطلب على المياه للمحاصيل الزراعية واحتياج الثروة الحيوانية للمياه بكميات اكبر , وهذا يحدث خللاً في الاتزان المائي إذ أدى استنزاف خصوبة التربة - بسبب تطاير الحبيبات الدقيقة من غرين وطين وكذلك المادة العضوية الموجودة أصلا بالتربة الى انتشار الاملاح ، وتكون قشرة ملحية على السطح؛ لان المنطقة كانت مغمورة بالمياه، مما ادى الى ارتفاع تركيز الاملاح الذائبة في التربة مثل كلوريدات وكبريتات وبيكاربونات الصوديوم والمغنسيوم والكالسيوم بسبب ارتفاع مستوى الماء الارضي والمناخ الجاف وظروف الصرف الرديئة التي صارت عوامل ادت الى تدمير التربة وتفكك جزيئاتها حتى تدمير البنية البيئية بكل محاورها لان هبوط مناسيب المياه الجوفية واختفاء المسطحات المائية يعني تحول مساحات من الأراضي المتماسكة الرطبة إلى أرض جافة مفككة قابلة للانجراف بفعل الرياح مما يعني تهيئة الظروف لانتشار العواصف الرملية والترابية وانتقال الرمال ناحية الكويت بفعل الرياح الشمالية الغربية السائدة وناهيك عما تحمله الرياح من أملاح ومتبخرات تنتقل مع الرمال والأتربة في اتجاه الكويت[٣٠].

في ضوء ذلك يمكن ان نلخص الاثار البيئية الناتجة من تجفيف الاهوار والمشاكل التي نتجت بسبب ذلك التجفيف اذ تعرضت المنطقة لأنواع من الضغوط، والمتغيرات البيئية التي أثرت في هذا النظام البيئي وموارده الطبيعية فقد كانت الاهوار تؤدي وظيفة مهمة في حماية البيئة وتحسينها، واعتدال درجات الحرارة لكثافة الغطاء النباتي فيها، وبعد التجفيف اختل هذا التوازن البيئي وتغيرت طبيعة المنطقة، والظروف المناخية المحلية، فإن تجفيف مساحة قدرها اكثر من (٩٠٠٠ كم٢) من الاهوار والبحيرات بصورة سريعة سيكون تأثيرٌ مباشراً في المناخ المحلي للمنطقة، فالتجفيف ادى الى ارتفاع في درجات الحرارة، وزيادة مظاهر التصحر، فأصبحت المنطقة ذات بيئة جافة، ولاسيما في أثناء فصلِ الصيف الحار، ومع هبوب الرياح الجافة، ودرجاتَ حرارة تصل الى أكثر من(٤٠) درجة، فالتصحر عملية هدم، أو تدمير للأرض التي يمكن أن تؤدي في النهاية إلى

ظروف شبه صحراوية، وهو مظهر من التدهور الواسع للأنظمة البيئية الذي يؤدي إلى تقلص الطاقة الحيوية للأرض المتمثلة في الإنتاج النباتي والحيواني، ثم التأثير في إعالة الوجود البشري هناك[٣١].

قرى مناطق هور الحمار والجبايش (قرية ال جوبير وقرى بني اسد انموذجا)

إن من أسوء ما تعرضت له البيئة العراقية عملية تجفيف الاهوار اذ أشرنا في المقدمة الى انها قد بدأت منذ منتصف الثمانينات لأهداف سياسية انتهجها رأس النظام البعثي البائد من اجل تصفية خصومه السياسيين دون النظر الى الاثر الذي سيولده هذا الاجراء في المستقبل في البيئة العراقية وما تحوية منطقة الاهوار من روافد اقتصادية مهمة فبعد ان تم تجفيف الاهوار سنحت الفرصة الى النظام البائد بان يقمع ويمحو قرى بأكملها من الوجود لأنها رفضت سياسة البعث الاقصائية والتجويعية ومنها قرية (آل جوبير) الواقعة على ضفاف نهر الفرات جنوب مدينة سوق الشيوخ في ذي قار وعلى ضفاف أهوار الحمار الشمالية اذ كان اهلها يعتاشون على الزراعة عموما ، وعلى محصول الرز (الشلب) خصوصا، وزراعة النخيل وصيد الاسماك والطيور وتربية المواشي الا ان الابادة الجماعية التي تعرضوا لها بمسح قريتهم كاملةً والزج برجالاتهم ونسائهم بالسجون واعدام معظم ابناء القرية وتجريف بساتينهم وقتل مواشيهم بعملية عسكرية بشعه لليوم آثارها باقية على ابناء القرية الذين عادوا بعد زوال النظام البعثي والمثال الآخر هم ابناء عشيرة (بني أسد) التي كانت تقطن مدينة الجبايش ، وكانوا يعتمدون في قوام حياتهم على تربية الجاموس، وعند تجفيف الاهوار فقدوا جميع مواشيهم مما اجبرهم على الهجرة الداخلية في البلد حتى انتقلوا الى مدن الفرات الاوسط وخاصة في اطراف مدينة كربلاء للسكن هناك والحفاظ على ما تبقى من حيواناتهم . والى اليوم لم تعد بيئة الاهوار كما كانت عليه بيئة صالحة لتربية الجاموس كما في السابق اذ يعد الجاموس ثروة وطنية اهدرت بفعل سياسات البعث المقبور.

جريمة النظام البعثي البائد بجفيف الاهوار

تشكلّت الأهوار في منخفض من التقاء نهري دجلة والفرات–جنوب العراق، وهي موطنٌ لعرب الأهوار، الذين لديهم ثقافة خاصة في نوعها، ويعتاشون على صيد السمك النهري، وتربية الجاموس، والزراعة.

في ربيع عام ١٩٩١م، شنَّ نظامُ صدام حملةً منظمة لتجفيف مياه الأهوار وتدمير القرى السكنية، وبحلول عام ١٩٩٤م، بات ما يقاب من الـ(٣٠٠٠ كليو متر) مربع من المسطحات المائية جافاً، ويقدر أن ٢٠٠ ألف شخص فقدوا منازلهم .

اعتمد نظام صدام أسلوباً جديداً في تدمير الأهوار، فتم تعيين المقبور علي حسن المجيد، المسؤول عن حملة الانفال في شمال العراق، لتكرار أنفال جديدة، لكن هذه المرة في جنوب العراق، إذ إن في المرحلة الأولى، عمل على إنشاء حاجز حول الأهوار، وتم تدمير القرى وتهجير سكانها، ونتيجة لذلك هلكت قطعان الجاموس وحظر الصيد، وحتى البيئة اعتبرها صدام عدواً له، ويجب التغلب عليها .

بعد عامين من قمع انتفاضة ١٩٩١م، عاد علي حسن المجيد إلى تجفيف الأهوار مرة أخرى، وحرق القصب ودمر كل بُناها التحتية (البسيطة)، وتأكد من تهجير السكان بشكل كامل.

واللافت في هذه العملية الإجرامية أنها لم يُسلط عليها الاهتمام الكافي مثلما حصل في عملية الأنفال شمال العراق، أو أية عملية إجرامية أخرى ارتكبها نظام صدام، فتجفيف الأهوار وتهجير مئات الآلاف من السكان الذين أغلبهم لم يعُد إلى موطنه حتى الآن، فضلاً عن تدمير نظام بيئي بشكل كامل، يمتد لخمسة آلاف سنة، ونتيجة ذلك، عانى عرب الأهوار الدمار الكامل لاقتصادهم

وثقافتهم وطريقة حياتهم، ومن الجدير بالذكر، إن جرائم صدام لم تكن تستهدف الناس بشكل مباشر، إنما استهدفت البيئة التي هي أساس وجودهم (الأهوار)، وقد تم تجفيفها وحرقها وسدها إلى درجة أن بقاياها فقط لا تزال موجودة .

في يوم من الأيام، كانت الأهوار أرضاً سهلية منبسطة مغمورة بالمياه، وغنية بيئياً، تعج بالكائنات الحية من الطيور المهاجرة والأسماك والجاموس، وأصبحت أرضاً قاحلة مغطاة بالملح، وقد توصّل الباحثون الذين درسوا هذه الظاهرة إلى أن تدمير الأهوار لم يكن له أية أغراض اقتصادية أو تنموية، بل تم بهدف وحيد هو تدمير عرب الأهوار، وقد هُجّر معظمهم، ولم يبق سوى بضعة آلاف، وفّر الباقون إلى مخيمات اللاجئين في إيران أو تفرقوا في أنحاء العراق، وهنا بدأت معاناة جديدة سواء خارج العراق أم داخله، فخارج العراق لم يكن أي اهتمام عربي بالموضوع، وبعض المهجرين –تقريباً ٤٠ الف– هاجروا إلى ايران وسكنوا معسكرات اللاجئين وهناك بدأت قصة اخرى للمعاناة، وفي الداخل العراقي، قصص اخرى، لأن عرب الاهوار، لهم ثقافتهم الخاصة التي لها ما يُميزها عن العراقيين الآخرين بشكل ما، وهنا ظهرت مشكلة الاندماج بالمجتمعات الجديدة التي هاجروا إليها، وحتى التحالف الدولي الذي اتخذ خطوات لحماية كورد شمال العراق، لم يتخذ أية خطوات لحماية عرب الاهوار .

يُذكر أن نسبة كبيرة من ثروة العراق النفطية المحتملة موجودة في الأهوار، وإن عملية تجفيفها أثر على المناخ الاقليمي للمنطقة، وزاد من درجات الحرارة، ولاسيما في الصيف، مما زاد من الجفاف، وانخفاض في هطول الأمطار، وبالنتيجة، لقد تم إبادة نظام بيئي بشكل كامل، فضلاً عن ابادة العادات والتقاليد التي تشكّلت حول ذلك النظام، وانتجت إبادة أخرى، وهي الإبادة الثقافية

لعرب الأهوار، إبادة ارتكبت بقصدية وتعمد، سبقها سلسلة من المقالات التي كانت تنشر ثقافة الازدراء لهذه المجموعة